تأمل

عيسى... أمل يشرق

نظر إلي بعيونه الحائرة، التي وجدت فيها بريقا مميزا سيبقى في ذاكرتي، وعلى وجهه ابتسامة جميلة..عيونه الشاردة عن الأستاذ وهو يشرح، جعلتني أضع الأسئلة التي طالما كنت أسألها لنفسي، في دوراتي التدريبية، ما الذي يجعل الطالب يتشتت في لحظات، وما الذي يعيد انتباهه في لحظات...أسئلة كثيرة، ولكن هذا «الشقي» لماذا يتابع النظر إلي ... ويبتسم ثم يخفض رأسه بشكل غريب ... حاولت أن أتجاهله .. وما هي لحظات حتى قطع علي أسئلة كثيرة في عقلي ليعطيني جوابا صامتا!! قام من مقعده الأخير، ومشى خطوات مائلة نحو الباب، وبنظرة للأستاذ أخذ إذن الخروج وخرج!!؟ ..من طريقته في المشي وطريقة تصرف المعلم معه، علمت أنه يعاني من مشكلة...ولكن ما هي؟!.

هكذا بدأت قصتي مع «عيسى»، هذا البريء في الصف الرابع من مدرسة «س» الأساسية...حامل الابتسامة الجميلة...«عيسى»، ولمشكلة صحية، خلقية، عاجز عن النطق بشكل سليم، وعاجز عن التفكير بشكل سليم ،وحركاته ضعيفة وغير متوازنة. عيسى لم يكن غير «ولد مجنون»، برأي كل معلم وطالب في المدرسة...والإهمال بالنسبة لهم هو الحل الأنسب..ولكن ما سر نظراته؟ هو يطلب شيئا قد عجز لسانه عن التعبير عنه..قد يطلب الشفقة أو الحنان أو العلم أو الاهتمام.

وجاء ما كنت أتمناه لحظة التقائي مع عيسى، بشكل صدفة مخططة عند ساحة المدرسة في فترة الاستراحة..بدأت بمحاولة الاقتراب منه وسؤاله بلطف..إن كان يستطيع كتابة اسمه. قدمت له ورقة وقلم عله يحاول. وما أن اقتربت أكثر حتى ابتعد عني..وكأنه يخاف من أي إنسان.. ولماذا لا يخاف ما دام الكل يعامله، حتى أصدقائه، بسخافة وإهمال ولامبالاة. وجدت معالم الخوف وكأنها ارتسمت على وجهه، فابتعد بلطف، وتركت له الورقة والقلم وحاولت مراقبته عن بعد.. كنت أمشي بعيدة عنه ولكن عيوني كلها عليه..وها هي لحظات الأمل تنبعث عندما رأيته يمسك القلم ويحاول الكتابة. إذاً، قد وصلت له رسالتي.. وفهم قصدي.. «لماذا لا تتعلم وتحاول؟!».

تلك المحاولة التي انبثقت من أناملة، أعادت لي روح العمل والمثابرة. عدت له بخطوات بطيئة وبدأت بالاقتراب منه أكثر فأكثر، حتى استطعت الجلوس بجانبه وأمسكت بيده، وبدأت أنا وإياه المحاولة لكتابة اسمه. وعززته بشكل قوي، فما قدمه بمساعدتي إنجاز كبير، فلعله نسي حتى كيف يحمل القلم، وبتعزيزه زادت ابتسامته بريقا. إذاً، هو يستطيع أن يتفهم كلام الناس، فلماذا لا يعاملونه باحترام وبعض المبالاة؟!

سألته : «عيسى..إذا أحضرت لك ورقة جميلة مثل تلك الورقة»... وعرضت عليه ورقة عمل عليها صور

ملونة جذابة للأطفال... «وطلبت منك أن تحلها، فهي سهلة وجميلة، وسأعطيك هدية جميلة وأضع لك النجم فهل توافق؟» هز لي رأسه بخجل وابتسامته ما زالت على وجهه تلمع وتزداد لمعانا..أحضرت له ورقة، ووضعت عليها ألوانا وصورا لتشويقه الى حلها ..وانتظرت اليوم التالي بفارغ الصبر، فسألته عنها في اليوم الثاني، فأجابني ببطء شديد «أنها ضاعت»، لم أتفاجئ ولم أعنفه، بل إن إجابته كانت سببا في زيادة تصميمي وعزيمتي..بحثت أكثر في حالته، فوجدت أن له أخا توأم في الصف نفسه، وقد كان عيسى يذهب في السابق بصحبة جدته إلى مدرسة خاصة لمعالجة النطق.. ثم تم نقله إلى مدرسته هذه..هو حقا يحتاج لتربية خاصة، وهذا ما سأقوم به، ولكن للأسف لفترة محدودة وهي فترة انتهاء الدورة التدريبية.

طلبت من أخوه متابعته في الواجبات التي كنت أكتبها له على دفتر خاص به..قمت بصنعها خصيصا له..كان مجلدا بكرتون مقوى أبيض، حتى لا يسهل تمزيقه مع الاستعمال،..وكتبت عليه اسمه بشكل واضح وعريض، ووضعت عليه صورا وألوانا تجعله يحب دفتره فيقبل على أداء الواجب.

وهكذا بدأت الرحلة مع «عيسى» و «محمد» أخوه، الذي كان من الطلاب الجيدين في الصف .وطبعا لضمان أن يكون حل الواجب من عيسى وليس من أخوه «محمد»، قمت بالتحدث مع أخوه بشكل لطيف وهادئ، وإقناعه أنه كما يحمل عقلا في رأسه فأخوه عيسى يحمل كذلك، وفكرة أن أخيه عاجز عن أداء الشيء فهذا خطأ..وهذا ما يجب أن يقتنع به أيضا كل معلم وطالب في المدرسة.

تغير عيسى وتغير تصرف أصدقائه معه.. أصبحوا يعاملوه بلطف واحترام..«فهذا عيسى الذي تتكلم معه المس لنا» وإن عاملناه بقسوة أو باستخفاف، فهي دائما بالمرصاد. وها هو عيسى يتطور ويكتب الأرقام من 1-10، منقطة ومن غير نقاط على فترات زمنية، ثم يكتب ماما وبابا عله يجد بكتابتها حنانا يفتقده، ثم اسم معلمته التي أحبها وأحبته..عله يتعلق بالمدرسة «التي ظلم فيها»، وبالمتابعة في درب التعليم من وراء حبه لمعلمته، أو لشعوره بالأمان والحب والحنان، في لحظات أعتقد أنه كان بحاجة لها هو وأخوه محمد.. أراد محمد دوما أن يكون أخوه عيسى مثله، يحاور ويتناقش ويحمل معه المسؤولية.. فليس هناك من مغيث!

كنت حقا راضية عما قدمته مع «عيسى»، وعما وصلت له من تغيير نظرة الطلاب والمعلمين عن «عيسى» ...«عيسى النشيط الذي دائما يحل واجباته ويستمع لمعلمته..فلماذا لا نصفق له أحيانا، ولماذا لا نهتم به أحيانا أخرى، ولماذا لا نحبه؟.

ولكن هنا يأتي السؤال، إلى متى ستبقى تلك الأمور على حالها؟ هل ستبقى بعد رحيلي من المدرسة، أم هي فترة وجودي؟ وما هو مصير عيسى ومصير أخوه أيضا؟ وهل حققت من عملي هذا تأثير على المعلمين في إعادة النظر بالحالات الخاصة..أم أنهم سيكررون القصة مع طالب آخر؟! فالعدد كبير، ولا يوجد هناك مجال لمناقشة مثل تلك الحالات، هذه هي العبارة التي أسمعها دوما... الى متى سنظل ننظر لطلابنا، على أنهم أناس اضطرتهم الظروف والمشاكل، وخلقت منهم أناسا يصعب التعامل معهم. إنه إنسان مدفون يحوي إبداعا معينا وموهبة معينة، فما أن نزيح عنه التراب الذي وضعناه، حتى نرى شخصا آخر..يبدع ويهتم.

لنا نايف محمد

طالبة/دار المعلمين (سنه رابعة)